

على هامش النقد

كتب وشخصيات

للأستاذ سيد قطب

« عبقرية محمد » للعقاد

(تمة ما نشر العدد الماضي)

للعقاد منطقته القوى في كل ما يكتب ، فقد كان مهياً أن يكون رياضياً لو لم يكن أديباً . وتلك علامة الطبع المستقيم . إلا أن منطقته في كتاباته الأولى كان منطقاً وثيداً متمهلاً فيه أيد وسرامة . فأما في « عبقرية محمد » فهو المنطق الجارف المتطلق المتحدر عن غير طريق من طرق الإقناع . مع وضاعة شفاقة وإشعاع لطيف .

وفي الكتابة لسات بارعة من المنطق العميق ، أدق ما بصورها قول العوام « ضربة معلم » وهي كثيرة متناثرة في الكتاب نكتني منها ببعضها :

يقول قوم : إن الإسلام استهوى من أساموا بالذائد الحسية وبالتخويف من السيف . فما إن يمرض العقاد لهذا القول حتى يجهز عليه بلمسة تهتدي إلى موضع الإقناع ، أو « بضربة معلم » بارعة في الصميم وإذا هو يقول في موضع : « لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر » ويقول في موضع آخر : « وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ويضع الطفلة من قريش في جانب العصمة والشجاعة » فيدرك القارى أنها الضربة المجهزة التي لا تدع مجالاً للتعقيب ، ويملم كيف ينتفع المؤلف بالواقع المعروف على هذا الوجه الفريد .

ويميب قوم على الإسلام التجاه إلى السيف ويسمونه بميسم الإكراه على الدين . فما إن يمرض العقاد لهذه الفرية حتى يجهز عليها في لسات متتالية أبرزها وأجدها : « أن الإسلام إنما يماز عليه أن يحارب بالسيف » فكرة « يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع . ولكن لا يماز عليه أن يحارب بالسيف » سلطة «

تقف في طريقه وتحول بينه وبين أسمع المستعدين للاصغاء إليه . لأن السلطة تزال بالسلطة ولا غنى في إخضاعها عن القوة . ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثية وتقاليدي لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء ... الخ » وعندئذ يبلغ العقاد بهذه اللسة موضع الاقتناع من كل ذى طبع مستقيم

ويميب بعض المتعصبين على النبي - عليه السلام - إقراره لقتل كعب بن الأشرف ، ولم يكن وقت قتله محارباً بالسيف ويشبهون هذا بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق د'انجيان . فما إن يمرض العقاد لهذا الاعتراض حتى يأخذه بضربة معلم فيقول : « الفارق عظيم بين الحالتين . لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الإلهية والرثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع في هذا الميدان . فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالظمن في لباب رسالته الإسلامية ، وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكت بعهده . وإنما هو محارب في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ... الخ » فتبلغ هذه اللسة موضع الاقتناع ممن يقتنعون !

ويتحدث قوم عن قسوة محمد لأنه راح ينظر القتلى في ساحة الحرب بعد موقعة بدر ، فيضرب العقاد ضربته على هذا الحديث بمثل هذه القوة في صفحات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ وخلاصتها « أن الرجل الذي يرى الدم في المدينة المصرية غير الرجل الذي يرى الدم في حروب البادية وفي حياة البادية على الإجمال . ونعني بها حياة الرعاة التي تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم ، وحياة العباثل التي كانت تنزو وتغزى في كثير من الأيام ... » وأنه كذلك « كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدمراً لينظروا بعين النبي إلى عواقب هذه الوقعة التي أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة في تاريخ الإسلام »

وتلوك السنة أن محمداً كانت تستهويه لذائد الحس ويتحدثون في هذا عن تعدد الزوجات . فيعرض العقاد لهذا بضرية من ضربات الملم حين يقول : « حب المرأة لا معابة فيه . هذا هو سواء الفطرة لا مرء . وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططاً في طلبه ، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطبائع فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟ »

ثم يقول : « وأعجب شيء أن يقال عن النبي إنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها » ثم يقول : « ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه اللذات أن يجمع النبي إليه تسعاً من الفتيات الأبنكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال ... الخ » فينتهي الجدل عند المتصفين

وهكذا ... من مثل هذا المنطق المتطلق الوضئ السريع

وللعقاد في « عبقرية محمد » لفتات نفسية وفكرية جديدة ، هيأه لإدراكها انفساح في النفس وغنى في الشهور وحيوية في الطبع والضمير

من ذلك قياسه الجديد لعظمة محمد بمقدار ما استحققت من صداقات ومقدار ما استجابت به لكل من هذه الصداقات : « تلك هي العظمة التي اتسمت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم والحيلة والصراحة والألمية والاجتهاد وحنكة السن وحمية الشباب »

وقياسه لهذه العظمة في موضع آخر بما انفسحت له من العطف على الصغير والتقدير للعظيم ، لأن إنسان العظيم جيل كانصاف الصغير

وقياسه لهذه العظمة في موضع ثالث بما انفسحت له من الجدل والهوض بمظالم الأمور مع تقبلها للفكاهة وعطفها على المتفكرين

وقياسه لهذه العظمة في موضع رابع بما انفسحت له من طبيعة العبادة وطبيعة التفكير وطبيعة التعبير الجميل وطبيعة العمل والحركة

ولولا الانفساح الكبير في طبيعة العقاد ما تهيأ لإدراك هذا الانفساح العظيم في مثله العليا في هذه النفس الرحبية ، ولما التفت إليه هذا الالتفات وصوره هذا التصوير

ومن هذه اللفتات التي لا يحصى من ذكرها - وإن ضاق المقام - التفاته إلى تسمية النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أدواته وأسلحته بأسماء الأعلام وما فيها من « معنى الألفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والصفات ، كأن لها شخصية مقربة تميزها بين مثيلاتها كما يتميز الأحاب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب »

لقد تحدث المتحدثون عن عطف النبي وحده فذكروا حوادث بره بالناس وبالحيوان . ومن كتبوا في ذلك حديثاً الدكتور هيكل في كتاب « حياة محمد » ثم تحدث العقاد فعرض بأسلوبه وطريقته مظاهر هذا العطف على الناس وعلى الحيوان ، ثم تجارزه إلى هذه الفتنة المشرقة . والزيادة هنا ليست لقصد الزيادة ، ولا لمجرد الاستقراء ، ولكنها تراد لنوع جديد من الدلالة لا يدرك ما فيه من طبيعة الألفة والمودة لأول وهلة ، ولا تدركه إلا بصيرة نافذة ونفس عطوف وحس شفيف

ويبلغ العقاد قمة اللفتات النفسية البارعة عند تحليله لمقوبة « المهجر في المضاجع » ويتجاوز الظواهر إلى حقيقة البواطن ومكامن الطبائع ، وتبدو الخبرة بطبيعة المرأة واليقظة لسيكولوجيتها الصميمية . ولئن يتسع المجال هنا لمرض هذه الفتنة ، فعلى هناك في الصفحات ما بين ٢١٤ ، ٢١٨ يرجع إليها من يريد

التخوم وراء التخوم . ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها
في هذه الحياة فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ودنا به
مرتبة من الله ... »

وبعد فإن الجديد في « عبقرية محمد » هو ضخامة الطاقة
النفسية التي تستطيع أن تلم بنفس « محمد » هذا الإلهام . هذه
الطاقة هي التي لم تنبأ من قبل لأى من كتبوا عن « محمد » .
وهي التي تشيع في جو الكتاب كله ، ويتعذر لسها في تعط
خاصة منه

« إن « نفس » محمد العظيمة هي التي يصورها هذا الكتاب
أربع تصوير ويحولها أحسن جلاء . وتلك هي « عبقرية المقاد »
في « عبقرية محمد » على وجه الإجمال .

سبح قطب

صدرت الطبعة الثالثة من

ليالى الملاح التائه

ديوان الشاعر على محمود طه
طبعة أنيقة فاخرة على ورق ممتاز وغلاف
مبتكر بالألوان الطبيعية لأول مرة .
نسخ النسخة ١٥ قرناً هذا مصاريف البريد

أرواح شاردة

دراسات في الأدب الأوربي وتراجم وصور فنية غربية
طبعة محدودة على ورق بوفان النادر
الكتاب الذي نفذت الطبعتان
الأولى والثانية منه في أقل من عام
نسخ النسخة ١٢ قرناً هذا مصاريف البريد
يطلب من جميع المكتبات العربية ومن مجلة الرسالة

وفي « عبقرية محمد » بعد هذا كله قصائد إنسانية رفيعة ،
وإشراقات نفسية وذهنية وضئيلة
فأما القصائد فهي هناك في مواضع متفرقة ، ولكنها تروع
وترفرف في ص ٢٦ حين يتحدث عن « عبد الله » فيقول :
لكأنما كان بضعة من عالم النيب أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب
فيها نبياً وهي لا تراه . ثم تعود ... الخ »

وحين يتحدث عن « مولد إبراهيم وموته » في فصل « الأب »
فيقول : « ولد الطفل الذي نظر إليه أبوه يوم مولده فامتد به
الأمل مئات السنين بل ألوف السنين ، ونحير له الاسم الذي
وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ليكون أباً ويكون له أحفاد
ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد ... »

« ثم مات ذلك الطفل الصغير

« ومات ذلك الأمل الكبير »

ثم يمضى في هذه القصيدة وفي تلك فتجس خفق قلب إنسانى
عطوف على مصاب قلب إنسانى كبير وتلمح رفرقة نفس شفيفة
على نفس لطيفة من وراء الآباد والقرون

وأما الإشراقات النفسية والذهنية فهي هناك في مواضع
متفرقة ، ولكنها تروع وتمجج عند الكلام على محمد « المابد »
وهناك صفحات في الإيمان والتفكير كانت خليفة أن يكتبها
أحد « الواصلين » ! فلعلها محسوبة للمقاد عند جمع درجات
الحساب في الكتاب المكنون ، ولعله واصل بهذه الدرجات
إلى عليين !!

وفي عبقرية محمد تقويم صحيح لطبيعة العبقرية ، ولطباع
كثير من المواهب والحقائق ، عنى فيها المقاد دائماً بتوكيد
الباعث المكنون في الضمير وإشاره على ظواهر الأمور « فالعبقرية
قيمة في النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق ،
وهي وحدها قيمة يغالى بها التقويم ... » ولقد فتح الإسلام
ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالماً
منطلقاً تحيط به الظلمات . فلم يزد الأرض بما استولى عليه
من أقطارها ، فإن الأرض لا تريد يغلبه سيد على سيد ، أو بامتداد